مع الصحابة والتابعين

١٠

حبيب بن مظاهر

ترجمة: كمال السيد

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

سبق لمؤسسة أنصاريان شرف تقديم سلسلة عن سيرة أهل البيت (عليهم السلام) الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً ، و لقد حظيت السلسلة باستقبال من فتيان الإسلام ممّا شجّع على تقديم سلسلة أخرى عن صحابة وقفوا مع النبي (صلى الله عليه و آله) و كانوا بحق رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

و هي إذ تقدّم هذه السلسلة إلى مكتبة الفتى المسلم إنما تأمل الإقتداء بأولئك الرجال الأفذاذ الذين أسهموا في صنع مجد الإسلام و رفع رايته عالياً ، و أضاءوا الطريق للأجيال .

مؤسسة أنصاريان : إيران ، قم ، شارع الشهداء

صندوق البريد : ايران / قم : ١٨٧ ، الهاتف : ٧٤١٧٤٤

كانت الصحراء مدّ البصر ، واسعةً مترامية الأطراف ، و السماء مليئة بالنجوم .

غادر شيخ في الخامسة و السبعين من عمره خيمته ، ركب حصانه و مضى .

كان يسمع من بعيد عواء الذئاب ، و لكن الشيخ لم يكن ليخاف شيئاً ، كان همّه أن يصل مضارب " قبيلة بني أسد " قرب نهر الفرات .

عندما وصل نبحت بعض الكلاب ، و كان بعض رجال بني أسد جالسين في خيمة كبيرة يتسامرون .

حيّى الشيخ رجال القبيلة ، فنهضوا له إجلالاً ، كانت تبدو عليه سيماء المهابة و لكنّهم لم يعرفوه .

جلس الشيخ ، و تطلّع إليه الرجال ينظرون إلى قسماته الهادئة ، و لحيته البيضاء كالقطن .

أنا حبيب

قال الشيخ معرّفاً نفسه :

ــ أنا حبيب بن مظاهر ، أنتمي إلى إحدى بيوتات بني أسد .

و كان رجل طاعن في السن ، عارف بالأنساب فعرفه و قال :

ــ صدق هذا ابن رئاب بن الأشتر ابن فقعس بن طريف بن قيس بن الحرث بن ثعلبة بن دودان بن أسد .

و قال رجل آخر :

ــ نعم هذا صاحب رسول الله (صلى الله عليه و آله) ، سكن الكوفة أيام أمير المؤمنين علي (عليه السّلام) ، و قاتل معه في حرب الجمل و صفين و النهروان .

سأل أحدهم :

ــ و لكن ماذا جاء بك يا شيخ بني أسد ؟!

فقال حبيب بوجهه الهادئ :

ــ جئتكم بخير ما أتى به رائدٌ قومه .

تطلّع الرجال إليه باهتمام . فقال :

ــ هذا الحسين بن علي أمير المؤمنين و ابن فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه و آله) قد نزل بين ظهرانيكم (قريباً منكم) في عصابة (جمع) من المؤمنين و قد أحاط به أعداؤه ليقتلوه ، فأتيتكم لتمنعوه (لتحموه) و تحفظوا حرمة رسول الله فيه ، فو الله لئن نصرتموه ليعطينكم الله شرف الدُّنيا و الآخرة .



نهض أحد الرجال وكان اسمه عبد الله بن بشير الأسدي و قال :

ــ شكر الله سعيك يا أبا القاسم فو الله لقد جئتنا بمكرمة يستأثر بها المرء الأحب فالأحبّ ، أما أنا فأوّل مَن أجاب .

و نهض رجال كثيرون ، و استيقظت القبيلة رجالها و نساؤها و أطفالها ، و أعلنوا تأييدهم ، و تطوّع الرجال للقتال دفاعاً عن الإمام الحسين سبط سيّدنا محمّد (صلى الله عليه و آله) .

بلغ عدد المتطوعين تسعين مقاتلاً خرج حبيب يقودهم نحو منطقة تدعى كربلاء ، حيث معسكر الإمام الحسين (عليه السّلام) و أهل بيته و أنصاره من المؤمنين .

كان في بني أسد رجل خائن ، فانسلّ في الظلام و أسرع ليخبر " عمر بن سعد " قائد جيش يزيد .

كان جيش يزيد قد قطع الطريق على قافلة الإمام الحسين ، و منع عنهم الماء .

جهّز عمر بن سعد فرقة مؤلّفة من خمسمائة فارس بقيادة رجل يدعى " الأزرق " .

قطع الفرسان الطريق على بني أسد ، طلب الأزرق من بني أسد العودة فرفضوا ، فنشبت معركة سقط فيها رجال من بني أسد قتلى و جرحى .

أدرك المتطوعون أنّهم أمام جيش كبير و من ورائه إمدادات كبيرة ففضّلوا الإنسحاب .

و عندما وصلوا إلى مضارب قبيلتهم حذروا قومهم من البقاء في هذه المنطقة .

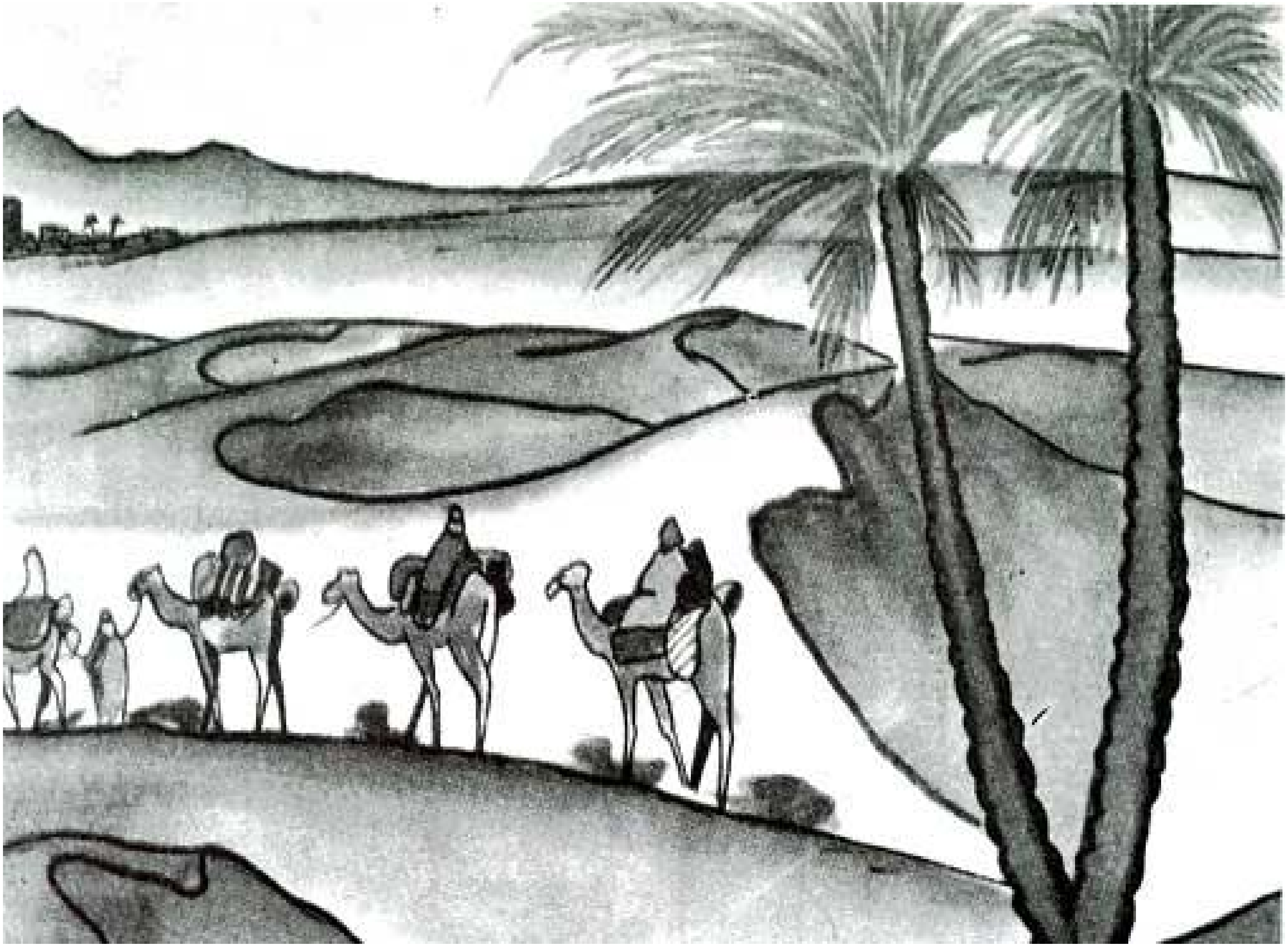
بادر الرجال إلى جمع الخيام بسرعة و الإنتقال إلى مكان آخر في الصحراء .

عاد حبيب وحيداً ، كان يشعر بالحزن لما حصل ، فأخبر الإمام الحسين (عليه السَّلام) .

فقال الإمام (عليه السَّلام) : و ما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله و لا حول و لا قوّة إلاّ بالله .

في كربلاء

عندما مات معاوية بن أبي سفيان جاء إلى الحكم بعده ابنه يزيد ، فأصبحت الخلافة ملكاً يتوارثه الأبناء عن الآباء .



كان يزيد رجلاً فاسقاً ، أي منحرفاً عن الإسلام ، فهو يشرب الخمر و يرتكب المحرّمات ، كما انّه يقضي وقته في اللعب و اللهو مع كلابه و قروده ، لهذا امتنع الإمام الحسين عن مبايعته .

و كان الناس في كثير من المدن الإسلامية يعانون ظلم بني أُمية ، و كان أملهم أن يموت معاوية فيتخلصوا من الظلم .

عندما عرفوا أن يزيد أصبح خليفة تألموا كثيراً و شعروا بالغضب ، إذ كيف يحكم يزيد بلاد الإسلام ، و هو لا يحترم الإسلام و لا يحبّ المسلمين ؟!

و كان الناس في الكوفة يحبّون الإمام علي بن أبي طالب (عليه السَّلام) لما رأوه من العدل و الرحمة في عهده ، لهذا بعثوا آلاف الرسائل إلى ابنه الإمام الحسين (عليه السَّلام) ، فهو ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله (صلى الله عليه و آله) كما إن الناس يعرفون سيرته و إنسانيته و حبّه و عطفه على إخوانه المسلمين .

كان الإمام الحسين في مكّة يستقبل الوفود و معهم رسائل كثيرة تحمل آلاف التواقيع و الأسماء و كلّهم يقولون : أقدِم علينا ليس لنا إمام (قائد) غيرك .



عندما يشعر الناس بالظلم و القهر و عندما يجوعون و يتعذبون فانّهم يبحثون عن إنسان يخلّصهم من الظلم و يحرّرهم من الاستعباد ، لهذا توجّهت أنظارهم نحو الإمام الحسين ، فهو الوحيد القادر على تخليصهم من العذاب و القهر .

إستجاب الإمام الحسين (عليه السَّلام) لطلبهم ، و عقد العزم على الثورة ضدّ يزيد بن معاوية . فغادر مكّة متوجهاً نحو الكوفة .

أخذ معه عياله من أطفال و نساء و بنات و كان معه رجال من أهل بيته و أنصاره .

الحصار

كان عبيد الله بن زياد قد أرسل فرقة عسكرية مؤلّفة من ألف فارس لقطع الطريق على قافلة الإمام الحسين .

كان الجوّ حارّاً جدّاً ، و قد نفد ما عندهم من الماء ، و عندما رآهم الإمام الحسين بهذه الحالة أمر أصحابه أن يسقوهم الماء ، فسقوهم و سقوا الخيل أيضاً .


لا اله الا الله

عندما أصبحوا قريباً من نهر الفرات عسكر الإمام الحسين ، و نصبت الخيام وصلت الفرق العسكرية و أصبح جيش يزيد أكثر من أربعة آلاف مقاتل ، فاحتلوا شاطئ الفرات ، و فرضوا حصاراً على معسكر الإمام الحسين و أصحابه و منعوهم عن الماء .

أرسل عمر بن سعد رجلاً يدعى قرّة بن قيس و قال له :

ــ سل (اسأل) الحسين لماذا جاء إلى الكوفة ؟

عندما جاء قرّة بن قيس ، سأل الإمام الحسين حبيب بن مظاهر :

ــ هل تعرفه ؟

فقال حبيب :

ــ نعم . . هذا قرّة بن قيس لقد كنت أعرفه بحسن الرأي و ما كنت أظنّه يقاتلك .

جاء قرّة و سلّم على الإمام و أبلغه رسالة عمر بن سعد . فقال الإمام :

ــ لقد أرسل إليّ أهل الكوفة بأن أقدم إليهم فإذا كرهوني انصرفت عنهم .

سكت قرّة بن قيس ، فقال حبيب :

ــ ويحك يا قرّة كيف ترجع إلى القوم الظالمين ، انصر الحسين .



قال قرّة :

ــ سأعود بالجواب إلى عمر ثم أُفكّر .

تاسوعاء

عندما حلّ يوم التاسع من شهر محرّم الحرام سنة ٦١ هجري أراد عمر بن سعد الهجوم ليلاً ، فزحف بقوّاته نحو معسكر الحسين .

سمعت زينب بنت علي بن أبي طالب أصوات العدوّ فقالت لأخيها الحسين :

ــ لقد اقترب العدوّ .

أمر الإمام الحسين أخاه العباس أن يسألهم .

ركب العباس فرسه و معه عشرون فارساً و كان معه حبيب بن مظاهر . فسألهم العباس عمّا يريدون ، فقالوا :

ــ إمّا أن تنزلوا على إرادة عبيد الله بن زياد دون قيد أو شرط ، أو الحرب .

عاد العباس إلى الإمام الحسين ليخبره .

ظلّ حبيب في مكانه و راح ينصحهم قائلاً :

ـــ أما و الله لبئس القوم أنتم عند الله غداً ، قوم يقدمون عليه و قد قتلوا ذرّيّة نبيّه و أهل بيته و عبّاد أهل هذا المصر (الكوفة) ، المتهجدين بأسحار (الذين يصلّون لله بعد منتصف الليل) الذاكرين الله كثيراً .

قال احدهم و اسمه عزرة :

ـــ انّك لتزكّي نفسك يا حبيب .

فردّ زهير :

ـــ ان الله قد زكّاها و هداها فاتّق الله يا عزرة فانّي لك من الناصحين .

قال عزرة :

ـــ يا زهير ما كنت عندنا من شيعة أهل البيت .

قال زهير :

ـــ كنت عائداً من الحج فجمعني و إيّاه الطريق فذكرت به رسول الله (صلى الله عليه و آله) و رأيت أن أنصره و أجعل نفسي دون نفسه .

من أجل الصلاة

عندما ذهب العباس ليخبر أخاه ، قال الإمام :

ـــ ارجع إليهم و استمهلهم (اطلب منهم مهلة) هذه العشية (الليلة) إلى غد لعلّنا نصلّي لربّنا الليلة و ندعوه و نستغفره فهو يعلم إني أحبّ الصلاة له و تلاوة كتابه وكثرة الدعاء و الاستغفار .

عاد العباس إليهم و استمهلهم إلى غد .

فكّر ابن سعد قليلاً و ظنّ إن الإمام الحسين ربّما سيغيّر رأيه و يتنازل ، لهذا وافق على تلك المهلة و قال :

ـــ إنّا أجلناكم إلى غد فإن استسلمتم سرحنا بكم (أخذناكم) إلى الأمير ابن زياد و إن أبيتم (رفضتم) فلسنا تاركيكم .

الاستعداد للمعركة

انصرف الإمام و أصحابه إلى الصلاة و الدعاء و قراءة القرآن ، لأنّها ستكون آخر ليلة لهم في هذه الدُّنيا .

كانت الخيام متباعدة بعضها عن بعض ، فأمر الإمام أن يقاربوا بينها حتى تتشابك الأوتاد ، و يصعب على العدوّ اختراقها إذا أراد

الهجوم . كما أمرهم بحفر خندق خلف الخيام ليكون القتال في جبهة واحدة .

و جمع الإمام أصحابه و قال لهم :

ـــ اثني على الله أحسن الثناء و أحمده على السرّاء و الضرّاء . اللّهم إنّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوّة ، و علمتنا القرآن و فقهتنا في الدين و جعلت لنا أسماعاً و أبصاراً و أفئدة و لم تجعلنا من المشركين .

أمّا بعد فانّي لا أعلم أصحاباً أولى و لا خيراً من أصحابي و لا أهل بيت أبرّ و أوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عنّي جميعاً .

و إنّي أظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً و إنّي قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حِلٍّ ليس عليكم ذِمام ، و ليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي .

رفض الجميع ذلك فما قيمة الحياة يعيشها الإنسان بذلّ . و قالوا :

ـــ نفديك بأنفسنا و أموالنا و أهلينا و نقاتل معك .

الأسير

و في الأثناء وصل شاب ، كان يبحث عن أبيه محمد بن بشير الحضرمي .

قال الشاب لأبيه :

ـــ لقد وقع أخي في الأسر في ثغر الري (قرب طهران) .

فقال الأب :

ـــ ما أحبّ أن يؤسر و أنا أبقى بعده حيّاً .

قال الإمام الحسين :

ـــ أنت في حلّ من بيعتي فاعمل في فكاك ولدك من الأسر .

رفض محمد بن بشير قائلاً :

ـــ لا و الله لا أفعل ذلك ، أكلتني السباع حيّاً إن فارقتك .

فأعطاه الإمام خمسة أثواب قيمتها ألف دينار و قال :

ـــ أعطها إبنك ليعمل في فكاك أخيه .

و هكذا كان أصحاب الإمام الحسين (عليه السَّلام) يفضّلون الموت مع الإمام على حياة الذلّ مع الظالمين .

خيمة زينب

خرج الإمام الحسين في منتصف الليل لتفقّد التلال القريبة ، فرآه أحد أصحابه و اسمه نافع بن هلال الجملي ، فتبعه فسأله الإمام عن

سبب خروجه فقال :

ـــ أخاف عليك الغدر يا بن رسول الله .

فقال الإمام الحسين :

ـــ خرجت أتفقّد التلاع و الروابي مخافة أن تكون مكمناً لهجوم الخيل يوم تحملون و يحملون .

عاد الإمام الحسين ممسكاً بيد صاحبه الوفيّ هلال ، و في الطريق قال له الإمام :

ـــ ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف الليل و تنجو بنفسك .

بكى هلال و قال :

ـــ و كيف أتركك وحيداً . . و الله حتى أُقتل معك .

و عندما وصل الإمام الخيام ، دخل خيمة اُخته زينب ، و وقف هلال ينتظر .

سمع هلال زينب تقول لأخيها :

ـــ هل استعلمت (عرفت) من أصحابك نيّاتهم ، فانّي أخشى أن يسلموك عند الوثبة (بدء المعركة) .

فقال الإمام :

ـــ و الله لقد بلوتهم (امتحنتهم) فما وجدت فيهم إلاّ الأشوس

(الشجاع) يستأنسون بالمنية (الموت) دوني (من أجلي) إستئناس الطفل إلى محالب (ثدي) اُمّه .

عندما سمع نافع كلام زينب ، بكى ثم مضى إلى خيمة حبيب بن مظاهر و حكى له ما سمعه و قال :

ــ من الأفضل أن نذهب إليها و نُطمئنها ، و لعلّ النساء قد استيقظن و شاركنها في قلقها و حزنها .

نهض حبيب ، و غادر الخيمة ، ونادى :

ــ يا أصحاب الحميّة !

خرج الرجال من خيامهم كالأسود ، و تحلّقوا حول حبيب ، فقال لهم :

ــ امضوا بنا إلى خيمة زينب نطيّب خاطرها و خاطر النساء .

مضى الرجال و هم يحملون أسلحتهم إلى خيمة زينب ، و عندما وصلوا هناك اصطفوا خلف حبيب و صاحوا :

ــ يا معشر حرائر رسول الله هذه صوارم (سيوف) فتيانكم آلوا (أقسموا) ألاّ يغمدوها إلاّ في رقاب من يريد السوء فيكم ، و هذه أسنّة (رماح) غلمانكم أقسموا ألاّ يركزوها إلاّ في صدور من يُفرّق ناديكم .

خرجت زينب و خلفها النساء و هن يبكين و قلن :

ـــ أيّها الطيبون حاموا عن بنات رسول الله و حرائر أمير المؤمنين .

بكى حبيب و بكى معه أصحابه و أقسموا على الدفاع و المقاومة حتى الموت .

رؤيا

و مضى الجميع إلى خيامهم . انصرف بعضهم إلى النوم حتى يستعدّ لمعركة الغد ، و راح بعضهم يقرأ القرآن أو يُصلّي .

كان الحسين (عليه السَّلام) في خيمته يصلح سيفه ، فشعر بالتعب ، فأغمض عينيه و نام .

كان الوقت سحراً ، رأى الحسين في عالم النوم كلاباً هجمت عليه و راحت تعضّه ، و كان بينها كلب أبقع ، يهجم على عنقه و ينهشه .

هبّ الحسين من نومه و قال :

ـــ إنّا لله و إنّا إليه راجعون .

عاشوراء

طلع فجر اليوم العاشر من المحرّم ، و صلّى الإمام الحسين (عليه السَّلام) صلاة الصبح و خلفه أصحابه .

ثم هيأهم للمعركة ، قسّم أصحابه إلى ثلاث فرق صغيرة : الجناح الأيمن و قائده زهير بن القين ، و الجناح الأيسر و قائده حبيب بن مظاهر ، و القلب و قائده العباس و هو أخو الإمام (عليه السَّلام) .

ركب الإمام الحسين ناقته و وقف قريباً من جيش يزيد و ألقى خطاباً وعظهم و نصحهم و حذّرهم من الإقدام على ارتكاب هذه الجريمة ، و لكن لا فائدة , لقد أضلّهم الشيطان فنسوا ذكر الله .

المعركة

بدأ جيش يزيد بالعدوان ، حيث أمطروا معسكر الحسين بالسهام فقال الإمام لأصحابه :

ـــ إنهضوا إلى الموت يا كرام .

اشتبك الفريقان في معركة غير متكافئة ، حيث واجه سبعون مقاتل جيشاً كبيراً مؤلّفاً من ثلاثين ألف جندي .

انتهت الجولة الأولى من الاشتباك ، و عاد رجال الحسين (عليه السَّلام) إلى مواقعهم .

شنّ جيش يزيد هجمات وحشية ، فقاوم أصحاب الحسين مقاومة بطولية ، و كان الرجال يتساقطون على الأرض شهداء دفاعاً عن ابن الرسول (صلى الله عليه و آله) .

مصرع مسلم

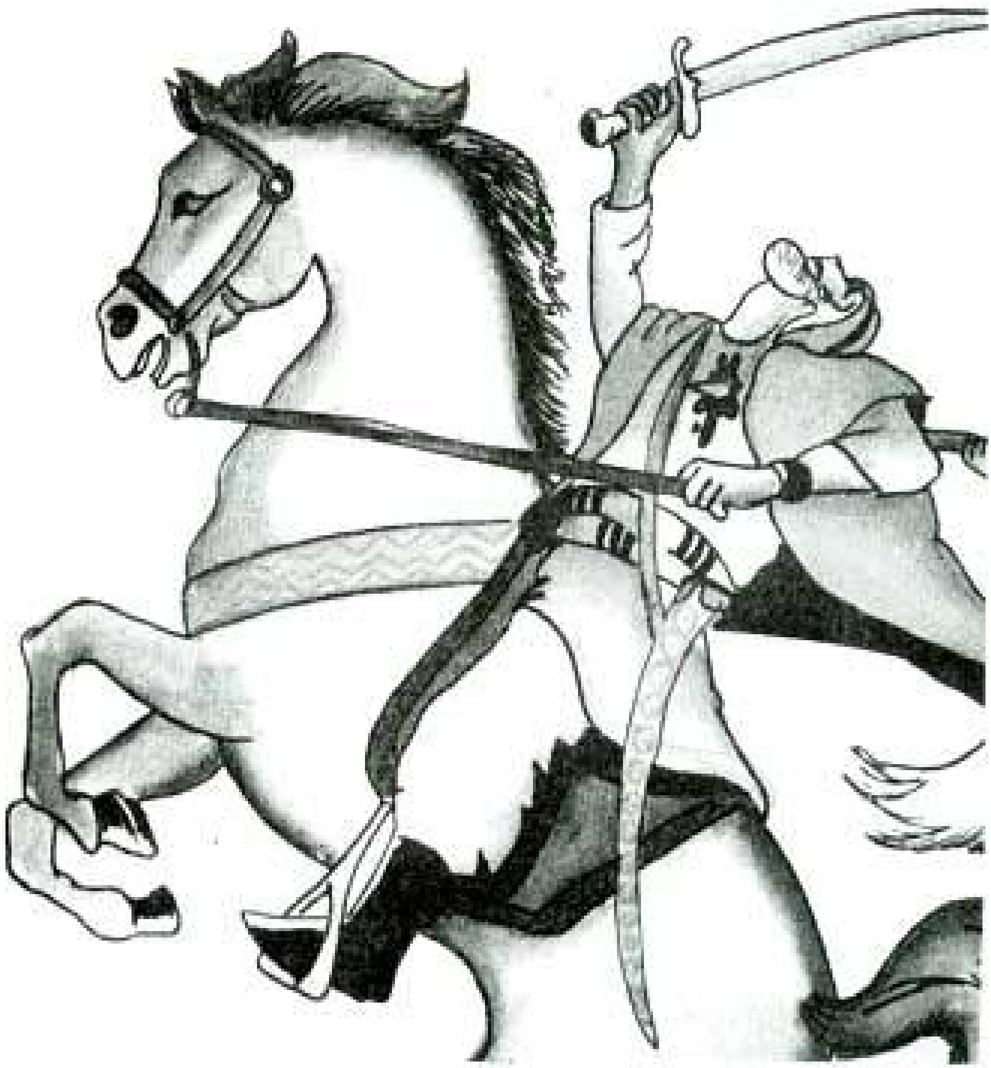
قام عمرو بن الحجاج بهجوم كبير من جهة نهر الفرات ، فتصدّى له أصحاب الحسين و قاتلوا ببسالة .

كان مسلم بن عوسجة و هو من أصحاب الإمام يقاتل بضراوة العشرات من جنود يزيد ، فأُصيب بجروح بليغة فسقط على الأرض .

عندما شاهد الحسين ذلك هجم على العدو و معه حبيب بن مظاهر و أنقذا مسلم بن عوسجة .

كان مسلم في الرمق الأخير من حياته .

قال الإمام الحسين بحزن :



ــ رحمك الله يا مسلم . { فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدّلوا تبديلاً }.

جلس حبيب قرب صديقه و قال :

ــ عزّ عليّ (آلمني) مصرعك يا مسلم . . أبشِر بالجنّة .

فقال مسلم بصوت ضعيف :

ــ بشّرك الله بخير .

قال حبيب :

ــ لو لا أنّي في أثرك لأحببت أن توصي إليّ بكلّ ما يهمّك .

نظر مسلم إلى حبيب ثم إلى الإمام الحسين (عليه السَّلام) و قال :

ــ يا حبيب أُوصيك بهذا (الحسين) أن تموت دونه (من أجله) .

فقال حبيب بحماس :

ــ أفعل و ربّ الكعبة .

الفرحة

كان حبيب ذلك اليوم يشعر بالفرحة تملأ قلبه ، فكان وجهه ضاحكاً .

تعجّب أحد أصحابه و قال له :

ـــ و هل هذا وقت فرح ؟!

فقال حبيب :

ـــ و لماذا لا أفرح و أنا أعرف أنّي سأُقتل ثم أدخل بعد ذلك الجنّة .

الصلاة الأخيرة

استمرت المعارك من الصباح حتى الظهر .

نظر أحد أصحاب الحسين إلى الشمس ، فرآها قد زالت فعرف إن وقت الصلاة قد حان .

طلب الإمام الحسين إيقاف القتال حتّى يصلّوا .

صاح الحصين بن نمير :

ـــ إن صلاتك لا تقبل يا حسين .

صاح حبيب بن مظاهر بغضب :

ـــ زعمت أنّها لا تقبل من آل الرسول و تقبل منك يا حمار !

النهاية

شعر الحصين بالحقد فضرب فرسه بالسوط و هجم على حبيب .

تصدّى حبيب له و ضرب وجه الحصان ، و سقط الحصين بن نمير على الأرض .

اندفع عشرات الجنود لإنقاذ الحصين ، فاشتبك حبيب معهم ، و قاتلهم قتال الأبطال .

تمكّن حبيب و بالرغم من شيخوخته من قتل أكثر من ستين جندياً .

و في غمرة القتال سدّد أحد الغادرين رمحاً وطعنه بقسوة و هوى حبيب ابن مظاهر فوق الرمال شهيداً .

و هكذا انتهت حياة ذلك الصحابي البطل الذي قضى عمره في الجهاد من أجل الإسلام .

لم يكتف ابن نمير بقتل حبيب ، فأخذ رأسه و علّقه في رقبة حصانه و راح يجول بين الجنود متباهياً بعمله الدنيء .

حاول الإمام الحسين إنقاذ صاحبه ، و لكنّه وصل متأخراً فدمعت عيناه و قال بحزن :

ـــ عند الله احتسب نفسي و حماة أصحابي . . إنّا لله و إنّا إليه راجعون .

و عاد الحسين إلى موقعه حزيناً لأنّه فقد أقرب أصحابه و أكثرهم إخلاصاً و وفاءً .

في قلوب المؤمنين

اليوم عندما يذهب المرء إلى كربلاء لزيارة سيّد الأحرار في العالم ، سيشاهد من بعيد قبّة ذهبية شامخة في السماء و منائر شاهقة في الفضاء .

و عندما يدخل الحرم الطاهر المغمور بروائح العطور و الربيع ، سيجد ضريحاً بالقرب من ضريح الإمام الحسين ، ذلك هو ضريح الشهيد حبيب بن مظاهر شيخ بني أسد و سيّد الأوفياء .

و لابدّ لمن يزور الإمام الحسين أن يُحيي حواريه قائلاً :

ـــ السلام على حبيب بن مظاهر الأسدي .

